مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب

Issn: 2572- 0058 Eissn: 2676-1696

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 09العدد: 02 جوان (2025) ص.191/178

إبدالات الخطاب الأدبي بين المقارنة والعالمية –أو الوجه الآخر لسلطة الوعي القومي–

Shifts in literary discourse between comparison and globalisation, or the other face of cultural consciousness authority

نواري بالة*

جامعة باتنة 1 (الجزائر)

nouari.bala@univ-batna.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2025/03/20
تاريخ القبول:
2025/05/26

الكلمات المفتاحية:

- ✓ الأدب المقارن.
- ✓ الأدب العالمي.
- ✓ الكوزموبوليتية الأدبية.

الملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى محاولة بيان البيئة التي نشأ فيها الأدب المقارن، والسعي لربطه بالمظاهر الثقافية والاجتماعية والسياسية، وكذا الوقوف على التبادل الثقافي الذي حدث بين الشعوب الأوروبية، وظهور نزعة التمركز الثقافي الأوروبي كترجمة للمركز والهامش، وأثر ذلك على الشرق، كما تسعى لتحديد دور النموذج الجاهز في رحلة الآداب، من خلال: الرحلة والصورة والسراب (Voyage،Image، Mirage). وأيضا إلى بحث أهمية عناصر الكوزموبوليتية الأدبية (الكتب والأدباء) باعتبارها وسائل عبور للحدود اللغوية، ووسائط انتقال إلى العالمية، من خلال عوامل وملابسات متعددة، تفضي في مجملها إلى الانتشار الذي يعتري الموضوعات والأجناس الأدبية، ثم البحث في الهيمنة الثقافية وسياقاتها ووسائلها.

*المؤلف المرسل

✓ ثقافة المركز.	
Article info	*Abstract :*
Received 20/03/2025 *Accepted* 26/05/2025	*This research paper seeks to explore the environment in which comparative literature emerged, and to examine its connections to cultural ,social and political aspects. It also seeks to analyze the cultural exchange that took place among European societies and the emergence of the European cultural center's tendency as a translation of the center and the margin, and the impact of this on the East. Furthermore, the study aims to identify the role of pre-established models in the trajectory of literature, mainly through travel, imagery, and mirage. Additionally, it investigates the significance of literary elements cosmopolitanism –books and authors- as means of transcending linguistic boundaries and facilitating the transition to global recognition through various factors and circumstances that contribute to the widespread dissemination of literary themes and genres then explores cultural hegemony,its contexts,and its means.*
Keywords: ✓ Comparative literature. ✓ world literature. ✓ Cosmopolitanism. ✓ culture of the center. ✓ .	

مقدمة:

لعل اختصار جوهر الأدب المقارن في ثنائية التأثر والتأثير التي جاءت كرد فعل على الانحياز المفضوح للكوزموبوليتية الأدبية نحو التمركز الأوروبي عموما والفرنسي خصوصا، يعد تقزيما معلنا لروح المقارنة المبنية أساسا على الانتقال ثم الانتشار عبر وسائل (وسائط) الكوزموبوليتية الأدبية المتمثلة في الكتب والأدباء، وهو ما عبر عنه ماريوس فرانسوا غويَّار في كتابه " الأدب المقارن" بقوله " وكان الأدب المقارن يومها، يبدو في بداياته وعيا للكوزموبوليتية الأدبية، مع توق إلى دراسة هذه الأخيرة تاريخيا".

وقد تم ذلك من خلال الانفتاح على عوالم أخرى خارج الحدود اللغوية والإقليمية مما يتيح الفرصة لولوج العالمية التي تعتبر مضمار التنافس بين المنجزات الأدبية والفكرية والأنساق الثقافية لشتى الأمم والشعوب، وذلك غير بعيد عن الحيثيات الحضارية و التاريخية والاجتماعية وكذا السياسية التي تؤطر هذا التنافس الذي كثيرا ما أدت به تفاعلاته- التي ليست بمعزل عن النماذج الجاهزة- إلى أن يصير صراعا خاضعا لسلطة الوعي القومي، الذي تبلورت من خلاله الهيمنة الثقافية مكرسة بذلك ثقافة المركز والهامش عبر ممارسة آليات سعت لفرض النموذج الثقافي الغربي على العالم عموما وعلى الشرق خصوصا.

1- من الكوزموبوليتية إلى الأدب المقارن:

لقد كان غروب شمس اللغة اللاتينية في أوروبا إيذانا ببداية عصر جديد ظهرت خلاله، دول قومية ذات صلات وروابط عرقية ولغوية وإثنية، وشرع كل شعب في رحلة البحث عن خصائصه ومميزاته التي تنأى به عن الذوبان في كيانات باقي الشعوب الأوروبية، فقد أخذت البلاد تستقل وتنفصل عن بعضها البعض وبدأت تنبثق القوميات، وصار كل بلد يسمى باسمه ويستأثر بلغته وثقافته، مع أنها كانت تنحدر من عالم واحد كان يسمى بالعالم الأوروبي المسيحي.

وهو ما نشأ عنه تنافس بين هذه البلدان في سبيل إثبات الذات والوجود المتميزين عن الآخرين، من خلال لغة وثقافة خاصتين ورؤيا للعالم والحياة خاصة أيضا، وسعت كل دولة إلى بناء مجدها وازدهارها وتفوقها في عالم الفكر والثقافة.

ولعل هذا الانكفاء على الذات والانغلاق على المحلي كان سببه سعي هذه القوميات إلى البحث عن السمات المشتركة بين مواطنيها لإيجاد الروابط التي تُمَتِّنُ بناءها وتحفظ كيانها، والتي يطلق عليها الشخصية الوطنية " وتعني الشخصية الوطنية هنا التاريخ القومي أو الثقافة الوطنية، دون ما وقوع في الحديث عن المزاج النفسي والعقلي التكويني للشخصية والذي يكاد يقترب من النظريات العنصرية، الموضوع هنا يتعلق ببعض الثوابت في الشخصية الوطنية التي ظهرت خلال التاريخ السياسي والثقافي" (حسن حنفي،1998م، ص 159.).

وقد أدى هذا الجنوح إلى الذات والانتحاء نحو الداخل إلى ظهور نزعات تنشد الانفتاح على الآخر، واعتبار الكل ذا قيمة فعَّالة في الكيان الإنساني الكبير، وتجسد ذلك خصوصا في التيار الإنساني الذي جمع بعض الأدباء الأوروبيين في عصر النهضة في بدايات القرن السادس عشر الميلادي، والذي اصطلحوا عليه : الكوزموبوليتية الأدبية، وفي هذا المصطلح " الكلمة في اليونانية من Cosmos أي الكون، نظام جيد الترتيب، و Politis مواطن، ويضاف إليها كسع isme الفرنسي (أو ism الانكليزي)، مترجما بياء النسبة وتاء المصدر الصناعي(يَّـة) للدلالة على المذاهب الفلسفية والأخلاقية والسياسية وسواها، في المعنى العام هو مذهب يعتنقه من يتجاوز نطاق الأمة والشعب والقوم، ويدعو إلى المواطنة العالمية " (غويَّار، 1978م، ص11).

وقد لاقت هذه الدعوة انتشارا واسعا لدى طائفة كبيرة من الأدباء والفنانين الذين جعلوا من باريس(فرنسا) مركزا لها، غير أن هذه الدعوة المثالية في مبادئها قد حادت عن هذه المبادئ، وجعلت من أوروبا عموما وفرنسا خصوصا رمزا للتفوق والوصاية الأدبية والفنية والفكرية، في مقابل الثقافات الطرفية الأخرى التي اصطلح عليها بثقافات الهامش بالتوازي مع ثقافة المركز التي تمثلها فرنسا ومن خلالها أوروبا، وهكذا ظهرت المفارقات القيمية في الأعمال الأدبية والفنية التي جعلت من "الإنسانية شيئا مخالفا تماما للكوزموبوليتية التي هي مجرد رغبة في التمتع بميزات الأمم جميعا والثقافات كافة" (غويَّار، 1978م، ص 12)، ولعل بلزاك يعبر عن هذا المنحى الجديد للكوزموبوليتية بقوله: " لكي تسكن في باريس، ليس ضروريا أن يكون لك بيت أو وطن، فباريس مدينة الكوزموبوليتي، أو مدينة الرجال الذين تزوجوا العالم وأحسنوا ربطه بذراع العلم والفن والقدرة" (غويَّار ، 1978م، ص 12)، وإن معالم القومية وتمجيد الانتماء الوطني واضحة جلية في هذا التعبير، وهي دعوة لربط ثقافات الهامش بثقافة المركز التي تمثلها باريس.

و فكرة المواطن العالمي كانت معروفة لدى فلاسفة اليونان وبشكل خاص عند سقراط، وهي ماثلة بمعنى الانتماء "إلى الإنسانية بأسرها مع تجاوز للحدود والوقائع الخاصة التي تقسم الدول والشعوب، كانت تفترض أن الأشخاص والأفكار تنتقل بحرية تقريبا، الشرط الضروري للمواجهة بين العادات والتقاليد التي تحسب كل أمة أنها مطلقة، بهذا المعنى لا يمكن الفصل بين التسامح والمواطنية العالمية".(آرون، سان جاك و فيالا، 2012م، ص 1124)

ثم إن الكوزموبوليتية التي شاعت في اللغة الفرنسية في القرن الثامن عشر، صارت تعني الانتماء إلى حضارة أوروبية مشتركة قامت على أنقاض الحضارة الرومانية الآفلة، وذات بعد ديني مسيحي (نصراني)، وذات بعد ثقافي يستجيب لنوسطالجيا سيطرة اللغة اللاتينية التي آلت إلى التهالك والانقراض بمجرد ترجمة الإنجيل إلى اللغة الألمانية، وهو إعلان عن انتهاء سيطرة اللغة اللاتينية على الحياة الثقافية والفكرية في أوروبا وبزوغ عهد اللغات المحلية والانتماءات القومية.

هذه الحالة من الإلحاح أدت إلى بروز دراسات جديدة تهتم بالعلاقات القائمة بين الآداب الأوروبية التي كانت خاضعة قبل ذلك لفكر موحد يتمثل في الروح المسيحية المتغلغلة في مختلف الآثار الأدبية الأوروبية وبخاصة في العصور الوسطى وقبيل عصر النهضة، إذ كان الفكر الكَنَسِي هو المسيطر على التوجهات الفكرية والثقافية والأدبية في أوروبا، وقد ساهم انعتاق الثقافة والفكر الأوروبيين من سيطرة الفكر الكنسي وسلطته خلال عصر النهضة في تشجيع التبادل الثقافي بين الشعوب الأوروبية التي تأثر بعضها ببعض، كما ساهم هذا الانعتاق أيضا في توجه هذه الدراسات إلى التأريخ للعلاقات الأدبية بين الشعوب الأوروبية، وتَبَنَّتْ المقارنة كمنهج إجرائي للوقوف على التأثير والتأثر الحاصل وإثبات الصلات والعلاقات القائمة وتوثيق التبادلات التي تتم بين مختلف الآداب، هذه الدراسات أطلق عليها مصطلح "الأدب المقارن"، وقد كان في بداياته لا ينفصل عن عناصر الكوزموبوليتية الأدبية، وهو ما أشار إليه ماريوس فرانسوا غويَّار (1978م) بقوله: "وكان الأدب المقارن يومها يبدو، في بداياته، وعيا للكوزموبوليتية الأدبية، مع تُـوقٍ إلى دراسة هذه الأخيرة تاريخيا" (ص12) ، هذا الوعي لم ينفك عن المدلول التاريخي الذي يعتبر أهم سمات الأدب المقارن كونه تطورا اعترى الكوزموبوليتية الأدبية، ولعل ما يشفع لذلك ويؤكده هو كون« الكوزموبوليتيون الكبار، هم أيضا أوائل المقارنين، إنما تلزمهم طريقة عمل، فهم سافروا وتحمسوا وحاضروا وقارنوا، لكنهم في الواقع قابلوا وزاوجوا معلومات من مختلف الآداب أكثر مما كتبوا تاريخها المقارن، وما إلا في نهاية القرن، حتى نشأ الأدب المقارن وأعلنوه وتصوروهن تيارا مستقلا ومنتظما." (غويَّار، 1978م، ص ص 12-13)

وهكذا فقد نشأ الأدب المقارن في بيئة كانت خاضعة لسلطة الوعي القومي، مما أدى إلى بروز نسق ثقافي يهدف إلى الاهتمام برسم ملامح القومية الفرنسية، ومحاولة إثبات تفردها من خلال تكريس نظرية تقر بدور جنسية الأديب وقوميته في تحديد خصائص الأدب وقيمته الفنية الجمالية والمعرفية الفكرية، وفي مقابل هذا كان هناك مقارنون أخذوا على عاتقهم عبء الخروج من هذا التعصب القومي الوطني، وعملوا على إيلاء الآداب الأجنبية غير الأوروبية (وتحديدا غير الفرنسية) حقها من القيمة والتقدير لمجهودات أدبائها، وهو ما أشار إليه فان تيجم بقوله: "على أنهم أوجدوا بمحاضراتهم وأشخاصهم جوا فكريا ملائما لنمو الأدب المقارن على نحو أقرب إلى المنهج السليم، فقد كان هؤلاء المولعون بالآداب الأجنبية المتحمسون لهان دعاة متعصبين إلى عالمية جديدة، فظهر في أوروبا هذا الاتجاه العقلي الذي كان يظهر في كل مرة بثوب جديد وخصائص جديدة." (تيجم، ص 23)

وقد درج الأدب المقارن وفق النظرة الفرنسية(المنهج التاريخي) على اعتبار الدراسات المقارنة جزءا من تاريخ الأدب، وهو بذلك يدرس الحيثيات الخارجية التي تنأى بالأدب المقارن عن الروح الأدبية التي لا يمكن بحال من الأحوال الوقوف عليها إلا من خلال التعامل مع الأبعاد الداخلية للنصوص الأدبية، كما أن الاتجاه الفرنسي قد حصر الدراسات المقارنة في الآداب فقط دون غيرها من المجالات الفنية والمعرفية الأخرى، وهو من مآخذ الاتجاه الأمريكي(المنهج النقدي) على الاتجاه الفرنسي(المنهج التاريخي)، إذ أن النظرية الأمريكية في المقارنة تقوم على انفتاح الأدب المقارن على الفنون ومجالات المعرفة الأخرى وعدم اقتصار ميدانه على الأدب فقط، ثم جاءت المدرسة السلافية(ويقال لها أيضا: المدرسة الروسية) التي حملت معها أفكارا جديدة من خلال الأيديولوجيا الاشتراكية وهي جديرة بالاهتمام في مجال الدراسات المقارنة، كل هذه الاتجاهات تصب في قناة واحدة هي "الدرس المقارن الذي ساهمت الظروف السوسيوثقافية في جعله درسا لعلاقات الأسباب بالمسببات عند المدرسة الفرنسية، وتحوله إلى

درس للنقد الجديد وتداخل وسائل التعبير مع المدرسة الأمريكية بحكم مكوناتها الجديدة، وأعلن عن نفسه درسا في تاريخ الأفكار وسوسيولوجية الأدب من خلال المدرسة السلافية الاشتراكية، كما اختزل هذا الدرس إلى مجرد ملاحقة التأثير و التأثر فيما يمكن أن نطلق عليه المدرسة العربية." (علوش، 1987م، ص5)

و ساهمت عوامـــل متعـددة ومتداخـلـــة فـــي التأسيس للأدب المقارن وإعطائه شكله النهائي، الذي نحا به نحو الانفلات من الفَلَك الذي بدأ فيه، وأبعده عن حصر أهداف المقارنة في إثبات الصلات التاريخية وبيان مواطن التلاقي بين الآداب القومية المختلفة، وتحديد عِلاَّت ومكامن التأثير والتأثر ودراسة وسائط التأثير، هذا كله بعيدا عن الفهم العميق للآداب الوطنية الأخرى، والنزعة التحررية التي طبعت القوميات الحديثة الناشئة في أوروبا، كما توجهت عناية الأدب المقارن إلى التفتح على بقية العلوم والفنون التي أتاحت إضافة مؤثرات البيئة التي تتم فيها المقارنة من خلال ربط الأدب بالمظاهر الاجتماعية والثقافية الأجنبية، وجَعْلِها صنوا(قرينا) للأسس الفنية والعناصر الجمالية للعملية الإبداعية.

2- الأدب العالمي وعالمية الأدب-من الانتقال إلى الانتشار:

لا تنحصر أهمية الأدب المقارن في دراسة التأثير والتأثر والأجناس الأدبية والمذاهب الفكرية والفنية، بل يقوم أيضا برصد حركة التبادلات الفكرية والثقافية بين الشعوب والقوميات بشكل عام، من خلال وقوف المقارن على الحدود اللغوية للأمة أو الشعب ومراقبة حركة الانتقال ذهابا وإيابا، ولعل أوضح ما يلاحظه المقارن هو تلك التأثرات بالأدب العالمي والتأثيرات فيه من خلال كونه رافدا للآداب القومية وكون الآداب القومية روافد له، وأبسط مفهوم للأدب العالمي من هذا المنطلق هو مقاربته على أنه تلك الروائع الأدبية التي تجاوزت حدودها القومية، أي أنها دخلت مرحلة الفوق قومية، فالانتقال هو أول مراحل العالمية، ويليه اعتبار الأدب العالمي تلك المنجزات الأدبية واسعة الانتشار، وكان الأديب الألماني يوهان جوتة أول من أشار إلى مصطلح الأدب العالمي باعتباره فكرةً موضوعَ جدالٍ وفق هذا المفهوم، فهو يقول " بأدب عالمي يمكنه الاعتماد على سرعة التواصل للخلاص من أَسْرِ إنتاج أدبي قومي ... يطرح هذا المفهوم بمنتهى الوضوح مسألة معرفة أيهما أفضـل؟ ربـط الأدب باللغـة أو الأمة، أو على العكس التركيز على القيم العالمية التي يقدمها الأدب، وفي الحال الأخيرة هذه، أليس من الأفضل استبدال عبارة أدب عالمي بكلمة أدب وحسب؟" (آرون وآخرون، ص65)

فالعالمية في الأدب لا تعني الشهرة، مع أنها تكاد تنطوي عليها، وهذا مُشاهَد في واقع الإنسانية إذ نجد أعمالا مشهورة ومنتشرة، غير أنها ذات قيمة فنية وجمالية وفكرية ضئيلة لا تكاد تُذكر، وهنا تُطْرح إشكالية "هل العالمية تعني مدى انتشار الفن خارج حدود إقليمه ووطنه؟ إننا لو أخذنا بهذا المفهوم لكان معنى ذلك أننا نخرج خاصية العالمية من ماهية الفن، أي سننظر إليها باعتبارها خاصية دخيلة عليه، ولا تنتمي إلى طبيعته أو ماهيته أو بمعنى أدق لا تشكل جزءا من قيمته، فظاهرة انتشار الفن قد تحددها وتتحكم فيها ظروف وأسباب خارجة عن العمل الفني ذاته من حيث قيمته الفنية والجمالية." (توفيق، 1997م، ص41)

وتجدر الإشارة إلى أن العالمية لا تدل على الطرف المقابل للمحلية، لأن المحلية غالبا ما يشار إليها بمفهوم يحمل في طياته دلالات الانتقاص والدونية مقارنة بالعالمية، وعليه ينبغي "فهم معنى العالمية في الفن باعتباره غير مضاد، بل ملتحم بخاصية المحلية المتمثلة في خصوصية روحٍ ما، فالعالمية إذن ليست شيئا آخر سوى القدرة على توصيل هذه الروح الخاصة المتميزة من خلال لغة الفن" (توفيق، 1997م، ص5) ، هذه اللغة المتميزة التي يستخدمها الفن تجعل منه "أسلوبا في الرؤية قادرا على تمثل

طابع إنساني عام يتجلى ويتمثل من خلال روح خاصة مميزة لأسلوب ما في الحياة، وفي تلك القدرة على رؤية وتصوير العام في الخاص تكمن عظمة الفن ولغزه في نفس الوقت." (توفيق، 1997م، ص54)

وهكذا فإنه يمكن القول بيقين لا يعتريه الشك أن الانتماء للوطن والقومية لا ينافي الانتماء العصر، ولا يعني الانغلاق على الذات، لأن العقل الجمعي الإنساني صار يواجه مشكلات العصر بصورة لم يسبق لها مثيل نتيجةً للتطورات التي شهدتها الإنسانية على كافة الأصعدة، وهي "تطورات بالغة الأهمية من شأنها أن تجعل الشخصية الإنسانية تنمو وتزدهر من خلال الاحتكاك والتفاعل مع الآخر الذي ينتمي إلى ثقافات أخرى مما يساعد في بلورة وعي كوني(عالمي إنساني) يتجاوز- شئنا ذلك أم أبينا- الوعي الوطني الضيق والوعي الإقليمي المحدود"(يسين، 2006م، ص241) ، فالعالمية هي وعي بالقضايا الإنسانية ولا تتعارض مع الخصوصية التي تشكل المرجعية الأولى والمنطلق الأساس للإبداع الأدبي والفني، كما أنها لا تنافي التنوع الذي يعد مناط الثراء الثقافي و الفكري.

وقد "سعت حركة ما بعد الحداثة إلى تحطيم السلطة الفكرية القاهرة للأنساق الفكرية الكبرى المغلقة، والتي عادة ما تأخذ شكل الإيديولوجيات على أساس أنها في زعمها تقدم تفسيرا كليا للظواهر، وقد ألغت حقيقة التنوع الإنساني، وانطلقت من حتمية وهمية لا أساس لها ..." (جيمسون، 2000م، ص10) ،هذه الإيديولوجيات أصبحت صبغة للحياة الإنسانية في العصر الحديث، فإذا كان القدماء قد تصوروا أن" الإنسان حيوان ناطق لأن الفكر كانت مهمته القضاء على الأسطورة، وكان الفكر هو وعي بالذات، وكان الوعي بالذات وعيا بالعالم ... والوعي بالعالم هو ممارسة للسياسة واعتناق للإيديولوجيا، وهكذا أصبح الإنسان في العصر الحديث حيوانا إيديولوجيا "(حسن حنفي، 1987م، ص202) ، حيث تمت أدلجة شتى مضامين الفكر والثقافة من خلال محاولة إضفاء الشرعية على دعوات الاندماج الحضاري وإلغاء معالم الخصوصية والتنوع، مع مراعاة أن خطاب التفرد إنما هو خطاب يدعو إلى العزلة ويكرسها على أساس شرعية التعدد الحضاري وحق الاختلاف، ووقف بمواجهة التحولات والتغيرات المعاصرة التي تتجاوز آثارها الحدود التقليدية للمجتمعات التي ما فتئت- منذ عصور بعيدة- تعتبر المجتمع والأمة أو القومية قيمة أساسية للوجود والكينونة، وعلى أساسها يتم تحليل الظواهر الاجتماعية والثقافية والفكرية، وقد كانت القوميات على درجات متفاوتة من الوعي والاستجابة "فهناك قومية منشطة وقومية خانقة، وهناك قومية متفتحة وقابلة للتوهج والإشعاع وقومية منغلقة على نفسها مخيفة، وهناك قومية سمحاء واسعة الصدر وقومية متعصبة تشد الخناق، وهناك قومية متحررة وأخرى مُؤْتَمَرة." (ريمون ودينيز ، 1987م، ص160)

وقد تطورت أشكال الوجود الإنساني والترابط المجتمعي، فالإنسانية "لم تعد مجرد تجمعات عددية أو مجموعات إيديولوجية، بل تحولت إلى وحدة سوسيولوجية واحدة مُكوّنَة بذلك كلاً اجتماعيا على درجة كبيرة من الشمول، أو بمعنى آخر أصبحت كل المجتمعات المنفصلة مترابطة في نسق عالمي واحد، بحيث يمكن الحديث عن علاقات بناء سياسي واقتصادي وثقافي عالمي."(عبد ربه، 2002م، ص17)

هذا النسق العالمي جعل القضايا الإنسانية تخرج عن المرجعيات الفكرية والثقافية القومية والوطنية إلى فضاء أرحب وأوسع هو فضاء الكونية والعالمية، فقد برز مع النظام الراهن "قضايا لها صفة العالمية مثل قضية الممتلكات العامة البشرية من بحار وفضاء، وقضايا حماية البيئة، وقضايا الهجرة والفقر، كما تبرز قضايا لها صفة العالمية أيضا حول دور الدولة والسيادة

الوطنية في ظل التحولات الراهنة ودور المنظمات الأهلية المتعددة الجنسية وكذلك الشركات عابرة القومية." (عبد ربه، 2002م، ص52)

وعمل الأدب العالمي على فتح قنوات الاتصال ووسائط المبادلات بين الآداب المعاصرة دون ما اعتبار للغاتها التي كتبت بها "إلا أن أهم ما أتى به الأدب العالمي هو اتساع دائرة الثقافة والوصول إلى التماس الثقافي، وهو ما كان من شأنه نقل تأثيرات الآداب القومية والمحلية إلى رحاب الصورة العالمية."(عيد، 2007، ص24)

كانت التبادلات الأدبية والصلات الثقافية والفكرية في صلب التحولات والتطورات التي شهدها العالم في الوقت الراهن، وهو ما بينه محمد غنيمي هلال في معرض حديثه عن الأدب العالمي بقوله: "وعالمية الأدب معناها خروجه من نطاق اللغة التي كتب بها إلى أدب لغة أو آداب لغات أخرى، وهذه العالمية ظاهرة عامة بين الآداب في عصور معينة، ويتطلبها الأدب المتأثر في بعض العصور بسبب عوامل خاصة تدفعه إل الخروج من حدود قوميته ... ومن نتائج هذه العالمية حدوث تغيير شامل في عال الفكر والأدب" (هلال، 2004م، ص93)، وهذا الانفلات من الحدود القومية والخروج عنها إنما يكون طلبا للكمال، من خلال التأثر بالآداب الأخرى وتحصيل كل ما هو جديد، أو سعيا للتأثير فيها، واستجابة لمتطلبات التفاعل الفكري والفني بين ثقافات الأمم والشعوب والقوميات، وتعد هذه التأثيرات المتبادلة من صميم الدراسات المقارنة لأنها تمثل تفاعلات الحدود اللغوية والأدبية، حيث يمكن ملاحظة طلائع الأدب العالمي وهي تتغذى من روافدها لتنمو مشكلة تراثا أدبيا وثقافيا وفكريا إنسانيا، فالانتقال عبر الحدود اللغوية والأدبية القومية ثم الانتشار في آداب القوميات الأخرى هي مدار العالمية.

ويتم الانتقال عن طريق وسائل ووسائط متعددة، منها ما يمثل عوامل عامة وهي تؤدي إلى عالمية أدبٍ ما، دون أن تكون عوامل فنية، ومنها ما يمثل عوامل خاصة تتعلق بالأدب وجوهره الفني والجمالي، وترتبط بالعمل الفني والعملية الإبداعية وعناصرها، وهي أكثر أهمية بالنسبة للدراسات المقارنة.

ومن العوامل العامة " اتجاه الصفوة المختارة إلى أدب أمة أخرى حيث يشعرون بحاجتهم إلى الخروج من دائرة أدبهم إلى آفاق أكثر اتساعا، ويبدو أن هذه الظاهرة عامة في تاريخ الآداب ... إن الدارس المقارن عليه أن يبحث حياة هذه الصفوة من الأدباء لأنها تكشف له عن عامل مهم من عوامل عالمية الأدب" (الراجحي، 2007م، ص22)، إضافة إلى الهجرة باعتبارها تؤدي إلى تواصل المهاجرين واحتكاكهم بآداب وفنون الأمم التي هاجروا إليها، وأوضح مثال على ذلك "ما نعرفه في أدبنا العربي الحديث من تأثيرات وافدة عليه بسبب هجرة عدد من أدبائنا، وغني عن البيان ما تمثله مدارس المهجر في هذا المجال" (الراجحي، 2007م، ص22)، كما كان للحروب والحركات الاستعمارية دور في اتصال الأمم واحتكاكها ببعضها، ما خلَّف تأثيرات أدبية وثقافية وحضارية واضحة شهدتها البشرية عبر العصور.

أما العوامل الخاصة في عالمية الأدب فقد أجملها عبده الراجحي (2007م، ص ص 23-24) في ثلاثة عناصر هي:

- الكتب: وهي الوسيلة الأساسية لانتقال الآداب، وعلى الباحث المقارن أن يدرس الكتب التي انتقلت إلى أدب معين من أدب آخر، حتى يعرف اتجاه الشعب في اختيار نوع خاص من الكتب، مما يكشف عن التيارات الثقافية والفنية والاجتماعية والسياسية السائدة.

- الترجمة: دراسة الكتب لابد أن تفضي إلى دراسة الترجمة، لأن الكتب المترجمة تكشف عن أذواق المجتمع واتجاهاته، وتحدد العلاقة التي تربطه بالمجتمعات التي ترجم إنتاجها، فالترجمة قد تؤدي إلى نشأة أجناس أدبية جديدة، كما حدث في الأدب العربي حيث نشأت الرواية والمسرحية مثلا، ثم إن الترجمة قد تؤدي إلى ظهور أذواق جديدة لم تكن موجودة من قبل.

- كتب الرحلات: وهذه الكتب تمثل وسيلة مهمة من وسائل عالمية الأدب، إذ يمدنا الرحالة بمعلومات عن طبائع الشعوب التي زاروها وعن ميولها واتجاهاتها، وعن مكانتنا عندهم، بحيث نستطيع أن نعرف العلاقة التي تربطنا بهم.

وهكذا فإن الأدب المقارن يدرس عوامل وقنوات الانتقال والانتشار على قدر من العناية والاهتمام، لا تقل عن عنايته بالبحث في التأثير والتأثر، كونهما الميدان الذي تتم فيه المقارنة بين الآداب القومية ورصد المبادلات الناتجة عن التواصل الثقافي بين مختلف الأمم والشعوب.

3- النموذج الجاهز(الوجه الآخر للهيمنة الثقافية):

3-1-الرحلة والصورة والسراب:

كان الأدب المقارن في بداياته يدرس كيفية مطابقة الصورة للواقع، وهو ما نتج عنه ظهور اتجاه جديد هو الصوراتية، أو علم الصور، وهو يدرس أدب الرحلات وصورة الأجنبي من خلال علاقة الأنا بالآخر ثقافيا واجتماعيا وحضاريا...، وهو يهتم بدراسة الصور باعتبارها تصورات واقعية تمت برمجتها انطلاقا من الثقافة الأصلية، هذه التصورات هي نماذج جاهزة تقبع في المتخيل الاجتماعي الذي يشكل بوتقة تتمازج فيها كل الرؤى المشتركة بين أفراد المجتمع الواحد أو الأمة الواحدة، والمتخيل الاجتماعي باعتباره فضاء مشتركا بين كل الجماعات البشرية قد تحقق عبر الأزمنة من خلال الاحتكاك بالآخرين، وله معلمان يحددان امتداداته واتجاهاته، أولهما هو الهوية التي تمثل ذلك الاعتقاد الداخلي بالتمايز والاختلاف بالمقارنة مع الآخر، والإحساس بالانتماء لجماعة بشرية معينة، ونستطيع ترجمة هذا الإحساس عن طريق الخطاب(الكلام)، والمعلم الثاني هو الشخصية التي تنعكس في تلك الأنماط من السلوكيات والأفعال التي نقوم بها انطلاقا من وعينا الاجتماعي الذي تشكل في كنف الجماعة البشرية التي ننتمي إليها، وهذه التصرفات لا تخرج غالبا عن العادات والتقاليد التي اعتمدتها الجماعة وأقرتها، وتشجع على القيام بها وممارستها.

وقد اعتنى الأدب المقارن بدراسة النماذج الجاهزة من خلال ردِّها إلى المثلث الأصلي الذي يشكلها وهو: الرحلة voyage والصورة image والسراب mirage، فالمقارن يدرس هذه الصور ويبين المعايير التي تحكمها والقوانين التي تخضع لها، والميكانيزمات المتبعة في إنتاج هذه الصور واستخلاصها من خلال أدب الرحلات، حتى تضمحل وتتلاشى وتصير مكونا سرابيا في المتخيل الاجتماعي الذي يحولها إلى سلوكيات اجتماعية أو قناعات فكرية يلتزم بها أفراد الجماعة البشرية مشكلة بذلك جزءا من ثقافتهم، هذه الثقافة التي تمثل "التجدد المستمر وقراءة النفس في مرآة الآخر، وقراءة الآخر في مرآة النفس، الثقافة هي الانفتاح الحضاري والتفاعل والأخذ والعطاء الذي يعبر عن جدل الأنا والآخر شرقا وغربا." (حنفي، 1989، ص164)

والنموذج الجاهز يقوم على إضفاء صبغة الأنا على الآخر وفق رؤيتنا وتوجهنا وتصوراتنا التي شكلناها عنه، فهي في غالبها نماذج عنصرية لأنها تخضع خضوعا كليا للذاتية والانطباعات الشخصية (سواء فردية أو جماعية)، ولا يمكنها الابتعاد عن الأحكام المسبقة والنأي عن الخلفيات الإيديولوجية والفكرية، وقد تجاوز ذلك نطاق العلوم الاجتماعية والإنسانية إلى العلوم الدقيقة والتكنولوجية، فإذا كانت "العلوم الاجتماعية بطبيعتها هي علوم إيديولوجية، أما العلوم الدقيقة والتكنولوجية فإنها علوم عالمية، فكيف تحمل إيديولوجية إذن؟ إن المظهر الإيديولوجي الأول لهذه العلوم يتمثل في تأكيدها عمليا- وليس نظريا كالعلوم الاجتماعية- لمركزية الغرب"(قلالة، 1990م، ص61)، فالممارسة العلمية والتطبيقية لأية نظرية ندَّعي بأنها عالمية، سوف تضطرنا إلى طلب الوسائل والأجهزة من الدول صاحبة التكنولوجيا، أما المظهر الثاني لأدلجة العلوم الدقيقة والتكنولوجية« فهو نتيجة مباشرة للأول، إن اقتناعك بقوة مركزٍ ما، هو الدافع الأساسي لتقليد هذا المركز وعدم التمكن من الانفصال عنه، بل والعمل على محاكاته، لذلك فإنك تجد المحتكين بالتكنولوجيا الغربية أكثر ولعا بالنموذج الغربي وأكثر نسيانا لمسألة التمايز الحضاري، وأكثر تقبلا لفكرة التعارف الدولي بالصيغة التي يطرحها الغرب." (قلالة، 1990م، ص ص 61-62)

إن المغلوب مولع بتقليد الغالب في شتى شؤونه، محاولة منه اللحاق به أو إدراك أسباب تفوقه، ولعل "من أشد الأخطار التي تهدد ثقافة مجتمع أو عصر ما، أن تتحول الثقافة فيه إلى" ثقافة لفظية"، أعني ثقافة تقوم على حفظ وترديد الألفاظ والمفاهيم دون تمثل أو هضم لمعانيها" (سعيد توفيق، ص9)، وهذا الخطر إنما يداهم الثقافة التي ترد إليها المصطلحات والمفاهيم المستحدثة مع التيارات والمذاهب الفكرية والفنية، فيتم ترديدها وتداولها مثل بقية السلع الاستهلاكية الأخرى، دون فهم عميق ولا تمثل صحيح، بل تستخدم كواجهة للإقناع بان هذه الثقافة تعرف أحدث ما تتداوله الثقافات المتقدمة، سعيا للانضمام لركب التقدم وتدارك التخلف والانحطاط، ولكن هذا التدارك لا يتأتى إلا من خلال وعي الذات الحضارية بجميع مكوناتها اللغوية والدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

3-2-صورة الأجنبي كما يُـرى:

ويُعَبَّر عنها أيضا بصورة بلد في أدب بلاد أخرى، ويقصد به تمثيل البلاد الأجنبية، أي دراسة صورة بلد ما منعكسة في أدب أمة أخرى، فمن المعروف أن كل أمة لها تصورها عن الأمم والشعوب والبلدان الأخرى من خلال علاقاتها بهذه البلدان أو اتصالاتها بها واحتكاكها معها، وتصدق هذه الرؤية على الأدباء أفرادا وجماعات، فقد يُكَوِّنُ أديب واحد في أدبه صورة لأمة أو بلد ما، كما قد يكون ذلك لدى مجموعة من الأدباء، ويعد موضوع" صورة الأجنبي كما يرى" من أهم مباحث الأدب المقارن، والذي نأى به عن البحث في التأثير والتأثر الذي قَيَّده وحَدَّ من أفقه وحصر من نتائجه، كون التشابهات في التأثيرات غالبا ما تمتنع عن الحجج والبراهين المقنعة، مما جعل نتائجها لا ترقى إلى المستوى الذي ينشده المقارنون ويطمحون له.

لا ريب في أن لكل إنسان فكرة معينة يصور بها غيره ولكل أمة صورة عن الأمم الأخرى، "وكثيرا ما تكون هذه الصورة الفردية أو الجماعية إما مبسطة كصورة الانكليزي المهذب، وإما بعيدة عن الحقيقة كصورة البرتغالي المرح الذائعة في الشعر الفرنسي، ولا غرابة في ذلك ما دام التصوير هو نوع من التأويل المرتبط أساسا بأحوال المصَوِّر النفسية والاجتماعية، والمصوِّر عادة لا يأخذ من الآخر إلا بعض السمات، أيا كانت جوهرية أو عرضية، ليظهره في صورة ناطقة تعكس أحلامه ورغباته هو أكثر مما تعكس واقع الشخص المصوَّر" (دراقي،1992، ص42) وتتجلى صورة الآخر من خلال اللغة، فهي رسم أداته الكلمة، إن الكلمات تدلنا على ذلك المجتمع الذي شكلنا حوله صورة معينة، فهناك كلمات مشحونة بدلالات كثيرة يستقيها الكاتب من

لغات الشعوب التي يزورها ثم يعمل على تحقيق لغة واقعية يرسم من خلالها صورةً للشعب أو البلد الذي يزوره، ويتمظهر ذلك في عدة مستويات يجسدها المعجم اللغوي الذي يستخدمه الأديب، ونستطيع عبره دراسة صورة مجتمع ما.

وألحت معظم الدراسات "على مفهومي" الوهم الخادع" و" النظرة الأسطورية" في تصوير الشعوب، والتصوير يحوي دائما- لطبيعته التقريبية والموجزة- قليلا من الصواب وكثيرا من الخطأ الناجم عن الأحكام المسبقة والآراء الجاهزة، ومعلوم أن دراسة الصورة قد تكون جزئية حيث يقتصر البحث على أديب واحد لمعرفة كيف صوَّر في مؤلفاته بلدا من البلدان"، (دراقي،1992، ص43) ولعل أصدق الصور التي تشكلت في هذا المضمار هي الصور المستقاة من أعمال الرحالة والأدباء المهاجرين، الذين كان لهم اتصال مباشر مع الشعوب والبلدان التي زاروها أو هاجروا إليها.

وللباحث المقارن أن يعمل على تحليل الصور التي كونتها الأمم والشعوب عن بعضها، ثم يقيِّمها ويقوِّم ما بها من شطط، حتى تقع الصورة الموقع المناسب وتعبر التعبير الصحيح الصادق، "ولا شك أن للصور الأدبية للشعوب تأثيرا عميقا في علاقاتها ببعضها البعض، ولها تأثير على عقول قادة الأمة من الساسة والمفكرين في تكوين رأي عام يقود إلى اتجاه خاص في العلاقات، وبهذا يكون للأدب المقارن دوره في أن تعرف كل أمة مكانتها لدى غيرها من الأمم." (الراجحي،2007، ص52)

ولتحقيق ذلك ينبغي دراسة العوامل التي ساعدت على تكوين صورة الأجنبي أو البلد، والاعتماد على الأعمال الأدبية ذات القيمة الفنية والفكرية الوافرة والجيدة، ومحاولة معرفة صدى تلك البلاد في أعمال الرحالة والأدباء الذين زاروها، إضافة إلى تحديد البيئة والحيثيات التي تكونت في نطاقها تلك الصورة.

3-3-الهيمنة الثقافية، السياق والأساليب:

نشأ الأدب المقارن في جو من الاستقطاب الحاد بين القوميات الأوروبية الحديثة، وقد اتخذ من الأدب الفرنسي محورا تدور حوله الآداب الأخرى، وهي نزعة مركزية متعالية، ويعد تعريف ماريوس فرانسوا غويَّار للأدب المقارن بأنه تاريخ العلاقات الأدبية الدولية، دعوة لتجاوز الشوفينية التي طبعت الدراسات المقارنة في بداياتها، والتي كانت تنحو نحو التمركز الأوروبي عموما والفرنسي خصوصا من خلال جعل باريس مركزا للكوزموبوليتية الأدبية أو عاصمة للعالمية الأدبية، والعالمية هنا هي بالمفهوم الغربي "إنتاج مميز للحضارة الغربية، وقد ساعد هذا الإنتاج في نهاية القرن العشرين على تسويغ بسط السيطرة الثقافية الغربية على المجتمعات الأخرى، وحاجة تلك المجتمعات إلى تقليد الممارسات والمؤسسات الغربية ... فالعالمية هي إيديولوجيا الغرب لمواجهة الثقافات غير الغربية." (شرف، 2004م، ص79)

فتوصيف العالمية إذن هو دفع للثقافات غير الغربية المانعة لإبقائها تراوح مكانها على الأطراف (ثقافات الهامش)، وقد تحوَّل نمط الحضارة الغربية "بفضل التطور المدهش لوسائل الاتصال الجماهيري إلى نمط حضاري كوني، أي نموذج عالمي للتفكير والحياة والإنتاج والاستهلاك..." (الجنحاني، 1990م، ص97) ، وبنهاية الحرب العالمية الثانية، تحول مركز الاستقطاب الثقافي الغربي من أوربا- وتحديدا فرنسا- إلى الولايات المتحدة الأمريكية، التي صارت مركز النموذج الكوني والنسق العالمي.

وقد عزَّزَ ظهور الحداثة وبعدها العولمة هذا الاتجاه نحو النموذج الثقافي الغربي عموما والأمريكي خصوصا، "والمقصود بالحداثة الحالة القائمة في الغرب ويقصد بها على التحديد في هذه الأيام الحالة الأمريكية التي يُرَوِّج لها الحداثيون على أنها تمثل الصورة الأرقى للنظرة إلى الآخر، وذلك بمضامين ومحتويات تشمل المساواة واحترام الآخر وخياراته، والتسامح مع الآخر والحوار

وإياه"(شفيق، 1999م، ص60) ، وهكذا صارت الحداثة الغربية- بشكلها وتَمَثُّلها الأمريكي- هي المعيار النموذجي الذي نحكم من خلاله على واقعنا وتراثنا وعاداتنا وتقاليدنا وقيمنا الدينية والاجتماعية والثقافية والإنسانية، فهو المرجعية التي يُحتذى بها، هنا وقعت ثقافات الهامش في تبعية ثقافية لا تقل خطورة عن التبعية السياسية والاقتصادية، على أن مصطلح التبعية له أصول اقتصادية استعمل في البدء للدلالة على ارتباط اقتصاديات الدول المستقلة حديثا بالمراكز الاقتصادية الرأسمالية العالمية الكبرى،« وقد جرى تمديده إلى المجال الثقافي بعد حصول البلدان المستعمرة على استقلالها السياسي، وبداية الوعي بضرورة استعادة ملامح الهوية الثقافية الأصلية لهذه البلدان التي غيرت المثاقفة ملامح ثقافتها المحلية، وتحتوي التبعية على آليات خاصة بها، تتعدد صورها وأشكالها، وتتداخل مستوياتها، وترتبط فيها التبعيات ببعضها(التبعية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية...) فهي كل متكامل شامل لجميع ميادين الحياة.». (عبد الباقي، 2008م، ص 42)

وقد تعرضت هذه الهويات الثقافية لصدمة خلال مرحلة ما بعد الكولونيالية أثناء سعيها لبناء ثقافات يحكمها الوعي بالهوية وتؤطرها أبعاد الشخصية الوطنية، كونها أصيبت بخيبة ثقافية وفكرية إذ وجدت نفسها خاضعة لسلطة النموذج، بل ومتعلقة بالنماذج وتقليدها، على اعتبار أن النماذج مستوحاة من اليوتوبيا، وما على المواطنين إلا الالتزام بالطوباوية المفترضة فيهم، ولكون "الثقافة منتوج تاريخي لا يوجد أبدا في حالة سكون لأنه يندرج في تاريخ العلاقات بين الجماعات ...، ومن البديهي- من خلال النسق الثقافي السائد- أن ثقافة الطبقة المهيمنة هي التي تهيمن وتسود دائما، ولا يعني هذا أنها أرقى أو أنها تتميز بتفوق ذاتي." (ولد خليفة، 2003م، ص ص66 -67)

وعليه فإنه لا يمكن التسليم بوجود ثقافة أحادية هي أصل كل الثقافات بالمعنى الواسع للثقافة، بل ولا يجب أيضا الإقرار بهيمنة ثقافة مرجعية صالحة لكل الإنسانية، وإنما هي ثقافات وتنوع ثري ينتقل من جيل إلى جيل بطريقة تتيح لها التحول والتغير في الأشكال والمضامين وفق ما تقتضيه التطورات التي تحدث في الأجيال.

ولم تشذ العولمة عن الحداثة فقد كانت أداة لتكريس السيطرة الغربية والهيمنة الثقافية، فالبعد الثقافي للعولمة يتجلى في سعيها لاجتياح الثقافات الأخرى، بل محوها من خلال تهجين العالم والعمل على انهيار السيادة الثقافية للأمم والشعوب وتجريدها من خصوصياتها، وفرض النموذج الثقافي الغربي في حلته الأمريكية، فالعولمة ما هي إلا صيغة مهذبة ووجه لمَاع برَّاق للاستلاب الثقافي المستند إلى أدوات ووسائل غير نزيهة يتبعها المخطط الأمريكي للهيمنة على العالم الثالث، مُرَكِّزا على البعد الثقافي في عملية الهيمنة، آخذا في اعتباره الأبعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية "وهي تسعى بما لها من نفوذ قوي إلى السيطرة الثقافية والهيمنة الإعلامية، بهدف إحداث تبعية فكرية تجعل من خلالها النموذج الأمريكي مصدر المعرفة لدى مثقفي هذه الدول، حتى يسعوا إلى تقليدها وتبني أفكارها ورؤاها، دون وعي لما يمثله هذا النموذج من خطر داهم على حاضر بلادهم ومستقبلها." (شيلر، 2007م، ص9)

ويعتبر الإعلام من أهم وسائل السيطرة التي اعتمدت عليها النسخة الأمريكية من الحضارة الغربية لبسط هيمنتها على العالم، فقد تم تسخيره لتسويق النظرة الغربية للحياة من خلال شغل العالم بمشاكل كونية عامة ومعقدة، تبدو صعبة جدا بالنسبة للدول الطرفية(دول الهامش) وأكبر من إمكانياتها، وذلك لإثارة انبهارها ودفعها للوقوف عاجزة أمام هذه القضايا الشائكة والمشكلات العويصة التي يواجهها العالم، فتسلم بالأمر للدول المتقدمة وتقر لها بالوصاية لمواجهة المخاطر الكونية الكبرى، فهم يقولون "أننا نعيش على كوكب واحد نتقاسم مصيره بشكل مشترك ... وباستطاعتنا أن نميز بين بعض المشاكل ذات

الطبيعة الكونية، وبعضها ذات الطبيعة الخاصة والمميزة لبعض المناطق، والخطاب السائد حاليا يركز على المشاكل من الطبيعة الأولى مثل مشكل البيئة أو الاحتباس الحراري." (أمين، 2003م، ص19)

وقد شملت وسائل السيطرة شتى ميادين الحياة وتوزعت عبر ثلاثة محاور: أولها المعرفة Le savoir ، وثانيها السلطة le pouvoir وثالثها المال L'avoir ، فهذا المثلث شكل حصنا منيعا أحاطت به الحضارة الغربية على العالم من خلال التحكم في المحاور الثلاثة المذكورة، ففي مجال المعرفة امتلكت المعلومة والتكنولوجيا وتحكمت في الإعلام وسخرته لأغراضها، كما امتلكت السلطة من خلال القوة العسكرية وادعاء الديمقراطية والحرية، وضرورة نشرها في العالم، واستغلال الهيئات الدولية كأداة لإضفاء الشرعية على تدخلاتها في شؤون بقية الدول، أما في الجانب المالي فبإنشاء هيئات اقتصادية ومالية دولية وتسخيرها لاستغلال ثروات الدول الأخرى مثل البنك العالمي وصندوق النقد الدولي، والتحكم في اقتصاديات الدول المستقلة حديثا وإبقائها هشة ضعيفة وتابعة للكيانات الاقتصادية والمالية الكبرى ومتعددة الجنسيات التي تسيطر عليها الرأسمالية العالمية.

وكانت القوى الغربية- وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية- تدَّعي الحوار بين الغرب والشرق، وبين الشمال والجنوب لأجل نظام عالمي جديد، غير أن هذا الحوار لم يكن يوما متكافئا، لأن ميزان القوة غير متكافئ، فصورة الشرق عند الغرب هي صورة جاهزة مبرمجة خاضعة لأحكام مسبقة ظهرت نتيجة للاحتكاك العدواني الناتج عن التوسعات الاستعمارية التي لم تتخلص منها الدول الغربية، وهذا كله "يستلزم الحوار والتفاعل بين بني الإنسان من أجل إنشاء نظام ثقافي عالمي جديد يسير جنبا إلى جنب مع النظام الاقتصادي الجديد والنظام الاجتماعي الجديد، وأهم شروط هذا الحوار والتفاعل أن تحرص الشعوب المختلفة على تنمية ثقافاتها لتصب في بوتقة الثقافة العالمية المرجوة." (عبد الدائم، 1983م، ص103)

وعليه فلابد من الاتجاه نحو رؤية للعالم المعاصر عالمية الآفاق، بعيدة عن التشوه والتمركز الغربي الذي قسم العالم إلى مركز وأطراف (هامش)، وهو ما يفترض حدوث "تطور في نظرة الغرب للعالم من خلال ثورة تحدثها الأنتلجنسيا في تطوير مشروع مستقبلي على مستوى التحدي الرامي إلى إعادة تموضع الثقافات المحلية في إطار ثقافة عالمية يمكن على أساسها حل مشكلة الاستقطاب العالمي الذي سيطر على العالم لفترة غير يسيرة" (أمين، 2003م، ص180)

خاتمة:

يمكن إجمال نتائج هذه الدراسة في ما يلي:

- أدى انهيار الإمبراطورية الرومانية إلى ظهور قوميات حديثة في أوروبا أسست دولا في الأقاليم التي كانت تسيطر عليها.
- كان زوال سيادة اللغة اللاتينية في أوروبا من عوامل ظهور الأدب المقارن.
- الكوزموبوليتية هو اتجاه يدعو إلى المواطنة العالمية.
- الأدب المقارن ميدان دراسة واسع يشمل الأدب وشتى فروع المعرفة.
- الأدب العالمي في أبسط صوره هو تلك الآداب التي تجاوزت حدودها القومية.

- الانتقال والانتشار هي أولى ملامح العالمية في الأدب.
- الرحلة والصورة والسراب هي محددات ثقافية قابعة في المتخيل الاجتماعي باعتباره فضاء مشتركا.
- النموذج الجاهز هو تلك الصورة التي يشكلها الأنا عن الآخر وفق خلفيات إيديولوجية وفكرية، والنماذج الجاهزة في عمومها تعبر عن منظور عنصري.
- صورة الأجنبي كما يُرى هي صورة بلد منعكسة في أدب بلد آخر.
- تعرضت أوروبا لاستقطاب حاد بين القوميات الحديثة التي نشأت على أنقاض الإمبراطورية الرومانية.
- النموذج الثقافي الغربي (ثقافة المركز) يوظف العالمية كإيديولوجية لمواجهة الثقافات الطرفية (ثقافات الهامش).
- وجدت الهويات الثقافية ما بعد الكولونيالية نفسها في صدمة إزاء سيطرة النموذج الثقافي الغربي في شكله الأمريكي.
- حوار الغرب مع الشرق والجنوب، هو حوار شكلي لأنه غير متكافئ.
- لابد من الاتجاه نحو رؤية للعالم المعاصر عالمية الآفاق بعيدة عن التمركز الغربي، وتقر بحقيقة التنوع والاختلاف.

قائمة المراجع:

1- إبراهيم محمود عبد الباقي، 1429هـ/ 2008م، *الخطاب العربي المعاصر-عوامل البناء الحضاري في الكتابات العربية*، المعهد العالي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية.

2- الحبيب الجنحاني، *دراسات في الفكر العربي الحديث*، 1990م، *دار الغرب الإسلامي*، بيروت، لبنان.

3- السيد يسين، 2006م، *المعلوماتية وحضارة العولمة-رؤية نقدية عربية*، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.

4- بول آرون ودينيس سان جاك والان فيالا، 1433هـ/ 2012م، *معجم المصطلحات الأدبية*، بيروت، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

5- حسن حنفي، 1987م، *قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر*، القاهرة، مصر، دار الفكر العربي.

6- حسن حنفي، 1998م، *هموم الفكر والوطن-الفكر العربي المعاصر*، القاهرة، مصر، *دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع*.

7- ريمون طحان ودينيز بيطار طحان، 1987م، *وصية المقارن: البيان الكوزموبوليتي*، بيروت، لبنان، دار الكتاب اللبناني.

8- زبير دراقي، 1992م، *محاضرات في الأدب المقارن*، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

9- سعيد توفيق، 1997م، *عالمية الفن ومحليته-دراسة تحليلية*، القاهرة، مصر، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

10- سعيد علوش، 1987م، *مدارس الأدب المقارن-دراسة منهجية*، بيروت، لبنان، المركز الثقافي العربي.

11- سمير أمين، 2003م، *إمبراطورية الفوضى*، الجزائر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار.

12- سمير أمين، 2003م، *نحو نظرية للثقافة-نقد التمركز الأوروبي والتمركز الأوروبي المعكوس*، الجزائر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار.

13- صابر عبد ربه، 2002م، *موقف الصفوة من النظام العالمي الجديد-دراسة ميدانية*، الإسكندرية، مصر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.

14- عبد الله عبد الدائم، 1983م، *في سبيل ثقافة عربية ذاتية-الثقافة العربية والتراث*، بيروت، لبنان، منشورات دار الآداب.

15- عبده الراجحي، 2007م، *محاضرات في الأدب المقارن*، بيروت، لبنان، دار النهضة العربية.

16- فان تيجم، د.ت، *الأدب المقارن*، ترجمة: سامي الدروبي، القاهرة، مصر، دار الفكر العربي.

17- فريديريك جيمسون، 2000م، *التحول الثقافي-كتابات مختارة فيما بعد الحداثة(1983-1998م)*، القاهرة، مصر، مطابع المجلس الأعلى للآثار.

18- كمال الدين عيد، 2007م، *الثقافة الرهان الحضاري*، الإسكندرية، مصر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.

19- ماريوس فرانسوا غويَّار، 1978م، *الأدب المقارن-مع مقدمة من المؤلف خاصة بالطبعة العربية*، بيروت، لبنان، منشورات عويدات.

20- محمد العربي ولد خليفة، 2003م، *المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية (دراسة في مسار الأفكار في علاقتها باللسان والهوية ومتطلبات الحداثة والخصوصية والعولمة والعالمية)*، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، منشورات ثالة.

21- محمد سليم قلالة، 1990م، *التغريب في الفكر والسياسة والاقتصاد*، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

22- محمد غنيمي هلال، 2004م، *الأدب المقارن*، القاهرة، مصر، *دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع*.

23- محمد ياسر شرف، 2004م، *إعادة تنظيم العالم-دراسة تحليلية نقدية لأطروحة صمويل هنتنجتون في صدام الحضارات*، دمشق، سوريا، منشورات وزارة الثقافة.

24- منير شفيق، 1999م، *في الحداثة والخطاب الحداثي*، بيروت، لبنان، *المركز الثقافي العربي*.

25- هربرت شيلر، 2007م، *الاتصال والهيمنة الثقافية*، ترجمة: وجيه سمعان عبد المسيح، القاهرة، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.